ناعورة

- ١ -

.. خرير الماء يدغدغ مشاعره، صفحة الماء صافية رقراقة ترسم صورتها، حدَّق بكل شوق، كأنه حقاً يراها،.. ومع انسياب الماء عبر خشبات الناعورة انسابت أحاسيسه..

.. يا نور عيني.. يا نور قلبي.. يا نوراً أُطفئت حياتي من بعده، أوَتظنين أني أبصر بغير عينيك..؟! سنين عمري قد أجدبت في ربيعها فلا تخضرُّ إلا بذكراك، وليس لي خيار أن أنساك، بل من الغباء أن أحمِّل على نفسي مشقة النسيان، ولمَ ذاك وذكراك توقظ كينونتي..؟ فلا أنسى نفسي، ولا أنسى قيماً ومشاعر ترعرعنا على ألقها ودفئها، ثمَّ أتى الحاضر فالتهمها وبقينا نشكو ظلمة الجهل وبرد التخلف..

سعيد بك يا نور وأنت مرض عضال عجزت عن البرء منه، بل إن عجزي دليل أصالة فطرني الله عليها، لأبقى في حنيني إليك كل حين وكل ساعة.

صحيح أني تشاغلت عنك منذ الفراق - تلك الكلمة التي تضرم في فؤادي اللوعة وتسحق عظامي في انحطاط - لكنك كنت وما زلت تخضِّبين يومي برائحة طيفك الملائكي، فلا أرى من الوجوه إلا ما شابهك، ولا أعي من الأصوات إلا ما قارب صوتك، ولا ألتفت إلا لاسمك.. أنت يا نور شريعتي التي سلخوها عني، أنت حضارتي التي سلبوها مني.. فبتُّ بلا اسم و لا رسم..!

ما زلت أتساءل مع وجع أنّان.. لمَ كان هذا الفراق..؟ وكيف كان..؟ لمَ أدفع ضريبة حب لا اخترت بدايته ولا يوماً فكرت أن أجعل له نهاية..؟

منحتك كل حبي، كل فكري، سخَّرت كل إمكانياتي ورغباتي وتحركاتي في سبيل حبك، في سبيل القرب منك، لكن القدر أقوى من صفقة يد واحدة..

كنتِ ذاك التمثال المرصَّع الذي تتمركز عليه الأنظار وتهفو إليه الذوات، لم يألُ أحدهم جهداً أن تشرئبَّ إليك عنقه ثمَّ يعود لكرَّاسه اليومي ليكتبه على عجل ويمضي، وبقيت أنا واقفاً أمامك أذوب مع كل شعاع شمس وأتقلَّص مع كل قرصة برد، وأنت في عليائك ثابتة لا تتنحنحين..! ومن ثمَّ.. ينتهي كل شيء بالفراق..؟

يقولون: "عيب على الرجل أن يبكي".. أين العيب

عندما بكيتك، وما زلت أبكيك..؟ أين العيب إذا بكيت على كل لحظة خزَّنتها لنكون معاً ثم هُدرت ملايين اللحظات كما يهدر ماء رقراق في إبريق ذهبي قد تكسَّر..؟ أيميل البصر إلى الإبريق ويُنسى الماء..؟ أبكيك ولا أعي أن الله قد رسم لقدرنا خطين متجاورين.. متوازيين.. متشابهين.. لكنهما غير متلاقيين..!

كم اختلقت الفرص للتلاقي، لكنَّ مشيئة الله جعلت تحركاتي كدبيب نملة على شاطئ نهر متعرِّج، فضغوطات أهلينا سحقت كل الأماني و رسمت واقعاً ظنوه الأجمل.

أحجمت يومها لأترك لك الخيار، جعلت الكرة في ملعبك، وكل ظني أنك ستمسكين بيدي لنتحدى العراقيل، فوجئت بك محجمة مذعنة مستسلمة قبل أن أترك لك الخيار، ما علمت أنك لا تحركين ساكناً بدوني، راودتني أمنية لو أنني لم أضعك في ذاك الاختبار، لو أنني واصلت الاجتهاد إليك دون هوادة.. لكن.. ماذا يعني أن نخلق عالماً بكل شخوصه لرغبة مفردة محضة..؟ أجل.. هو ذاك يا نور.. صمتك ذبحني، وكأن الأمر لا يعنيك تماماً كما يعنيني، وكأنني ما أعطيت وضحيت وتفانيت لأجلك..!

في قلبي غصَّة إلى الآن، وفي عيني عتب عليك إلى

الآن، وكأنني أفرد ضفيرة شعرك عقدة تلو عقدة حتى إذا عادت إلى خصالها تمنيت لو أستطيع لمَّها مجدداً لأعقد بها قلبي، أنت يا نور استسلمت ولذت بالسكينة وجعلتني كسواي من الراغبين إليك ولم يحظوا بك، لست مثلهم يا نور، أنا قيس.. لم يحبك أحد كما أحببتك ولن يحبك، وكما أحبك حتى هذه اللحظة، وكما سأظلُّ مريضاً بك كل عمري، فقد خلقتُ وأنت محفورة ضمن أخاديد قلبي، حتى إن مرت الأيام.. وقد مرت.. وقد وجدت نفسي مناطاً بزوجة ومن ثمَّ ولدين، هل من رجل لا يعي أنه تزوج..؟ لا تسألينني من تكون.. فهي صفحة من صحائفنا اليومية، تناسب أيَّ رجل ويناسبها أيُّ رجل، أليس ذلك الواقع الذي ظنوه الأجمل..؟ والذي دفعونا دفعاً لنلوِّن أزقَّته بجراح القلب ورماد الدمع، ومن ثمَّ نرسم لهم ابتسامة السعادة، ومع الوقت.. نصبح مع شبح الابتسامة جزءاً من تلك الأزقَّة.

أنت يا نور.. ذاك الماضي الناصع الذي يدفعني لأكون أنا.. ولست هم.. أنت يا نور عصارة الجمال التي قدَّسوها لي ثمَّ أبعدوها عني..

على ورق الورد بثَّ لواعجه.. لملم كلماته وزجَّها في زجاجة عطر، ومع أصيل الشمس أرسلها عبر نهر الحب ودقَّات قلبه تفوق خرير الماء وعنين الناعورة..!

- ٢ -

جلست على حافة النهر.. أرسلت قدميها لمجرى النهر يعبث بهما، تطلَّعت طويلاً إلى الماء الذي يجري، وإلى قدميها الثابتتين وقلبها الواجم، خرير الماء أوقظه، فهبَّ يبوح..

" هاك كلماتي.. أنشد فيها عبقك الذي ما فارق روحي، هاك همسات عجزت عن همسها لك في القرب، وها أنت الآن في كل بعدك.. مع كل عمقك.. أستجديك وأنت..هنا.. داخلي.. ما برحت قلبي وما خلوت عني يوماً.

غارت الأيام بيننا بعداً، وما زلت أحفظ رائحة طيبك، ما زلت أحنُّ إلى لمعة عينيك، ما زلت أشتاق إلى تلك اللهفة العذراء المحترقة بالخجل فيهما.

.. آه يا قيس.. ماذا أحكي لك..؟ و روحي هل عساها تملك السحر كي تستجلبك..؟ هل يقدر صدقها أن يجتذبك؟

ما زلت أنتظر المبادرة منك، هكذا عوَّدتني دائماً،

وهكذا عوَّدني الزمان.. أن أنتظر أفعال الآخرين، ومواقف الآخرين، وكأنني ورقة تُدوَّن عليها نتائج تجارب الآخرين.

في الوقت الذي كنت تنتظر فيه رداً مني.. تحرُّكاً، كنت أنتظر فعلاً منك، بغباء مني بقيت بلهاء أنتظر، وبحزن وحيرة منك بقيت تنتظر، غبائي وحيرتك شرخا القدر عنا فلقتين..!

سنوات من الكفاح والآمال، سنوات وأنا أبني في حياتي الجديدة حجر الأساس، هذا مضماري المتاح لي في الحياة، والحياة تتطلب الكثير من التضحيات، وكنت أول من ضحيت به يا قيس، فالكأس الثملة لا تستوعب أيَّ جديد، وقد بتُّ مرهونة بزرع الحب والحياة لأشخاص جدد رسموا لي واقعي وجعلوني زوجة وأماً وربة منزل يحمينا معاً.. ويسمِّينا معاً.

بقدر غيابك عني، اقتحمت روحي بجرأتك التي عهدتها، وكم من مرات صحوت فيها مذهولة أوحِّد بين جسدي هنا وروحي هناك.. حيث الأطلال التي محاها أهلونا ومحوا معها اسمينا، ليتني أستطيع أن أرجع لك هذا الكمَّ من المشاعر التي أمطرتني بها، فليس لها مرتع في قلبي إلا فضاء الأحلام، وللصدق.. ليتك تمنحها من تستحق.. أو تمنحني إياها حين أستحق.. أما بجمودي..!!

مع إذعاني ورضاي أتساءل.. أما كنا قادرين أن نوفِّر قدراً من الأحزان، ونختصر سنوات نسيان، ونلمَّ حروفنا برضاء الله..؟ أو مع كل هذا الحب جهلنا كينونة الانصهار وبقينا نحلِّق بمشاعرنا في الهواء، حتى إذا لامست أقدامنا الأرض تحامقنا عن إجراءات الواقع..؟

ما زلت أراك يا قيس.. فتى العشرين ذاك.. يصول ويجول عند المحطة، يحوم حول تمثال الأميرة الحسناء، آه.. كم كنت مغرورة وجوفاء، أنانية حمقاء، لكنني كنت ضعيفة يا قيس.. ضعيفة لا تجيد سوى بكاء الأطلال، وكلماتي أتراها - يا قيس - تكفِّر لك عن حمقي وأنانيتي، عن ضعفي الذي جُبل مع طينتي، وأحاطني به مجتمعي، فبتُّ أشدُّ خوراً من رسم حياتي واختيار شريك أيامي.

أتمنى لو أعود فأراك يا قيس، تراني لو رأيتك هل سأرى قيساً الذي اعتادته روحي..؟ بعنفوانه وخجله..؟ برغباته وقيمه..؟ هل ستبقى الفارس الذي سيحرر ضعفي ويطلق ذاتي إلى مشعل الحق والطاعة ؟ أتراك يا قيس ذاك الرجل الذي يستوعب كينونتي ويفهمني، ويرقى بي إلى سمو العبودية لله.. لا لأحد سواه..؟

آه يا قيس.. لو أستطيع أن أراك. حينما كنت حرَّة كنت أضعف من الخطو نحوك، أوَبعدما كبَّلتني الحياة

بقيود الأمومة والعطاء أجرؤ على الخطو..؟ أما قلت لك إنني اعتدت المبادرة منك..؟.. عذرك مني.. ما زلت بعد كل هذه السنوات كما كنت.. محجوزة في قالب مجتمعي، وما فوَّتته لحظة صدق قد لا تعوِّضه سنين دهر.

ليس لك مني إلا أن أرمي مشاعري عبر نهر الحب، قد تسوقك قدماك يوماً إلى ضفتيه فتلتقي بمشاعر وصلتك كحالي.." متأخرة ".. حررتها من قالبي وأطلقتها إليك."

في ذات اللحظة من ذاك الأصيل لتلك الشمس البرتقالية الصامتة، على ضفة النهر الأخرى.. أرسلت زجاجة عطرها، والناعورة تقف حائلاً بين ناظريهما..

obeikandl.com

- ٣ -

قفل كل منهما عائداً أدراجه إلى سجنه من حيث أتى، ضحكت الناعورة منهما، وبكت لأجلهما، وراحت تدور بسرعة وتحثُّ من خطا الزجاجتين لتمشيا في خطين متجاورين متشابهين.. لكنهما غير متلاقيين.

مرت سنوات أخرى ونور لا تدرك أن قيساً هو صنوها وبين يديها، وقيس يجهل أن نور هي قرينته وبريق عينيه، وأن كلّاً منهما ما كان ليحيا لولا أنه بجوار الآخر، لكن الماضي لا يفتأ يلقي بظلاله علينا أشعة من الخيال الجميل وعبقاً من الأحلام المجنَّحة؛ لنستلذَّ بصور نريد أن نكون أبطالها ولو في الخيال، بل حتماً لن تكون إلا في الخيال، لأن الخيال أجمل.. وأسهل.. ويحمل شاشة مسطَّحة، لأن الخيال ليس له جيوب ولا يحتاج بيتاً ولا سيارة، الخيال لا يعرف كيف يكون الحزن مؤلماً والغضب ثقيلاً والملل كئيباً والظلم مظلماً، كل شيء فيه مرسوم بالريشة والألوان، كل شيء فيه جميل و جذاب.. حتى الضعف.. يتحوَّل فيه إلى بطولة..

.. ذلك لأنه خيال...!